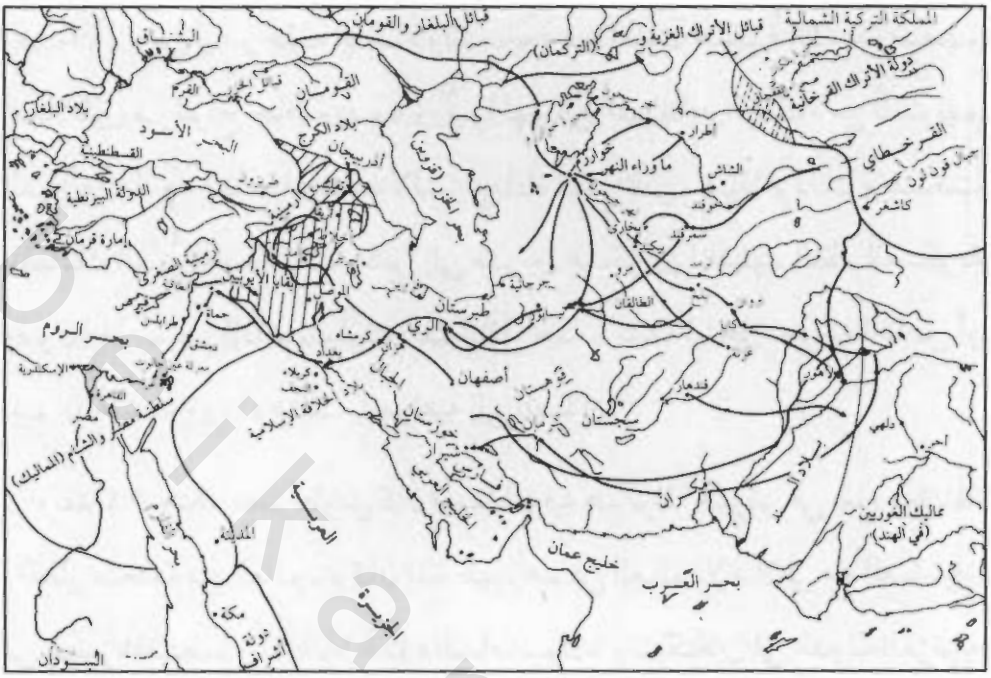

المماليك:

المماليك أصلاً أطفال ينتمون إلى قبائل بدائية بسيطة، كانت تعيش في بلاد تركستان وبلاد ما وراء النهر والدّيلَم والخزر والسودان والنوبة، بل كان هنا أيضاً أطفال من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس يُباعون للتخلُّص من تَحَمُّل تَبعاتهم، ولكي يضمن له الآباء مستقبلاً أفضلَ مما ينتظرهم في بلادهم. وكانَ هناك أيضاً أطفالٌ يُختَطفون من ديارهم وأسرهم ويُرْسَلون هدايا للخلفاء.

وكان هؤلاء الأطفال يُجْلَبون إلى مصرَ وإلى غَيْرها من البلدان وهم في عمر الأزهار لتَتم تربيتهُم وإعدادُهم في ضوء الأهداف المرسومَة لتنشئتهم . . كان هؤلاء الأطفالُ يعرضون على السلاطين فَيخْتارونَ منهم من هو أحسنهُم قامةً

وصحةً، ومن يبدو عليه الذكاءُ والنجابةُ، فإذا تَمَّتْ عمليةُ الشِّراء وَضَعهم السلاطينُ في أبراجٍ خاصَّة بهم، ورَتَّبوا لهم من الفقهاء والعلماء من يُلقنونهم الدينَ والعلومَ، ويأخذونهم بالالتزامِ بأداء الفرائض، فإذا تمَّ ذلك وتقدمت بالمماليك السِّنُّ نحو الشباب وكلوا إلى مدربين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية وفنون الحرب . . فإذا تم للملوك ذلك انتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه الخاص أو بديوان جيشه، وربما وصلت به مواهبه إلى الصدارة.

ولقد كان هناك عصر طويل كان المماليك فيه هم نواة الجيوش في بقاع مختلفة وأقطار متعددة من العالم. وكان بَدء ظهورهم في العالم الإسلامي مع العباسيين في عصر المعتصم، ثم حذا حَذْوَه السامانيون، وسبكتكين في الدولة الغزنوية وأمراءُ الأندلس وخلفاؤها، كما كان العبيد والمماليك يكونون الجيوش في العهد الإقطاعي بأوربا.

ولا بد لنا أن نوضح أن المماليك من وجهة نظر الإسلام لم يكونوا في البلاد الإسلامية رقيقا أو عبيداً؛ لأن الرِّقَّ في الإسلام لا يكون إلا بالنسبة لسبايا الحرب من غير المسلمين، وحتى بالنسبة لهؤلاء السبايا في الحروب فإن الإسلام يفتح الباب لعتقهم ويتيح العديد من الفرص لذلك.

أما من أطلق عليهم تعبير المماليك فهم من الوجهة الشرعية أشخاص أحرار لا سلطان لإنسان آخر عليهم، وإن كان قد تم جلبهم بالمال فهو سبيل غير مشروع للاسترقاق في الإسلام.

ولقد حكم المماليك مصر وسورية بعد الدولة الأيوبية، وكان هؤلاء المماليك فئتين:

- المماليك البحرية: وقد جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي حكم مصر عام ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م، وضم إلى مملكته دمشق عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م، وظل يحكمها حتى عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. وقد جمع نجم الدين أيوب من المماليك ما لم يجمع غيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء العسكريين من مماليكه.

وبنى نجم الدين أيوب لمماليكه قلعة بجزيرة الروضة وحشدهم بها، وكان معظمهم من الأتراك، واختار منهم فرقة للأسطول سميت الفرقة البحرية؛ ولذلك سمي هؤلاء بالمماليك البحرية. وقد حكم هؤلاء المماليك من عام ٦٤٨هـ إلى عام ٦٨١هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م.

- والفئة الثانية هم مجموعة أخرى من المماليك الجراكسة، اشتراهم السلطان قلاوون أحد المماليك البحرية بعد أن وصل إلى السلطنة.

وقد حكم قلاوون هو وأولاده وأحفاده لأكثر من قرن من الزمان ٦٧٧-٧٨٤هـ/ ١٢٧٩-١٣٨٢م، وقد استولى أحفاد هؤلاء المماليك الذين عرفوا بالمماليك البرجية على الحكم عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، وظلوا يحكمون مصر حتى عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وكانت تسميتهم بالمماليك البرجية لأن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أسكنهم في أبراج القلعة، وكان عددهم آنذاك ٣٧٠٠ مملوك. ويرجع أصل المماليك البرجية إلى موطنهم الأصلي في بلاد الكرج (جورجيا)، وهي من الجمهوريات التي استقلت حديثا عندما تفكك الاتحاد السوفيتي السابق، تقع بين بحر قزوين والبحر الأسود، وبها منطقة تعرف باسم شركس، ولذلك سمي هؤلاء المماليك أيضاً بالمماليك الجراكسة.

لقد أبدى المماليك براعة فائقة في صد الهجمات الصليبية على مصر، وخصوصا في موقعة المنصورة. وكان للمماليك دور في تولية شجرة الدر سلطاناً للبلاد لمدة ثلاثة شهور، وكان للمماليك الوصاية على عرش مصر بعد مقتل توران شاه وشجرة الدر. وانتصر المماليك على الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، وصارت مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك القدس وغزة والساحل للمماليك بمرسوم صدر من الخلافة العباسية ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م. ولقد أوقف المماليك زحف التتار على مصر في موقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، والتقت مصر والشام بعد الموقعة تحت حكم واحد. واستطاع برقوق، أحد المماليك البرجية أن يقنع الخليفة العباسي بإسناد حكم مصر والشام إليه.

ونظم بيبرس وقلاوون حملات منظمة إلى النوبة لردِّ الاعتداءات التي كان يقوم بها ملوك النوبة على أسوان وعلى الموانئ المصرية، ووصلت سلطة مصر في عهد المماليك إلى جنوب السودان، وقامت مملكة إسلامية في النوبة ودنقلة بفضل الحملة التي قادها عز الدين أيبك من المماليك. واستولى المماليك في عهد السلطان بارسباي المملوكي على جزيرة قبرص وهدّدوا جزيرة رودس. وكانت قبرص قد خضعت لسلطة ريتشارد قلب الأسد منذ الحروب الصليبية، بل أخضع المماليك جزيرة رودس التي كانت تحاول مناصرة جزيرة قبرص، فأسكتوا صوتها.

وكان للمماليك دور كبير في التصدي للجيش التركي الذي حضر لغزو مصر، فأظهر السلطان قنصوه الغوري ورجاله بطولة خارقة في موقعة مرج دابق عام ٩٢١هـ/ ١٥١٦م، لكن الخيانة من بين قادة جيوش قنصوه كانت السبب في الهزيمة.

وتصدى طومان باي للجيش العثماني عند الريدانية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، لكن الخيانة كانت وراء هزيمة المماليك في تلك الموقعة. وبالهزيمة في الريدانية انتهت دولة المماليك.

الموروس:

اسمٌ أطلقه الإسبان على العرب أو المسلمين في الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م، التي عمرت كمملكة إسلامية بالأندلس لفترة بلغت ٢٦٨ عاماً، بفضل معاونة ملوك بني مرين في المغرب وكانت هزيمة المسلمين في موقعة طريف التي كانت تُعدّ ثغراً مهما تصل منه معونة المرينيين إلى ملوك غرناطة.

والاسم الإسباني الذي أطلق على المسلمين بعد انتهاء آخر قاعدة للحكم الإسلامي في الأندلس بسقوط غرناطة هو LOS MORISCOS، وهي بالعربية الموروس، وكانت تعني المسلمين الصغار.

ورغم أن المعاهدة التي عقدت بين آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة مع فرناندو وإيزابيلا من ملوك إسبانيا كانت تضمن الحرية الدينية لمن بقي من المسلمين في الأندلس بعد الهزيمة فقد اجتهد الأساقفة النصارى في تنصير المسلمين الموروس.

وعندما وصل الأسبان في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٦م، إلى مجموعة الجزائر التي يطلق عليها اليوم جمهورية الفلبين اصطدموا بطلائع المسلمين الذين كانوا موجودين في جزيرة لوزون، كبرى الجزر الشمالية بالفلبين- سموهم بالاسم الذي سبق أن أطلقوه على المسلمين في الأندلس وهو الموروس.